الخطاب الشّعري الصّوفي الغنّوصي للأمير عبد القادر * (1300هـ)
قراءة في المصطلحات

د. امحمد سحواج
جامعة الشلف

الملخص:

غدا الخطاب الصّوفي الغنوصي متجاوزًا لمنطق العقل وقوانينه، فارضًا لمنطقه الخاص (منطق الخطاب العرفانيّ)، الذي يسلك طريقًا للتّعبير عن الآراء والأفكار الغنّوصية بلغة الذّوق الباطنيّ.

فالخطاب الشّعري الصّوفي للأمير عبد القادر، ينتمي لهذا التيّار الصّوفي المتفلسف فانعكست فلسفته على هذا الخطاب، الذي لم يخل من الأفكار الغنّوصية، والتي عبر فيه عن أهم مصطلحات الفلسفة الغنوصيّة في خطابه الشعري الصّوفي، لذلك نريد الوقوف عند الإشكال الآتي: ما هي أهم المصطلحات الصّوفية الفلسفية التي وظفها الأمير عبد القادر في شعره الصّوفي؟ وللإجابة عن هذا التساؤل هيكلنا محاور مقالتنا على النّحو الآتي:

1- الإطار المعرفي لمصطلح الغنوص:

2- أهم المصطلحات الصّوفية الغنّوصية:

أ-التجلّي، ب-الفناء، جـ-الحقيقة المحمدية، د-وحدة الأديان، هـ-الحيرة الصّوفية، و-وحدة الوجود.

الكلمات المفتاحية:

الغنوص – الخطاب- التصوف – الشعر – المصطلح الصّوفي.

Le Résume :

Cette intervention a pour but de mettre en évidence les caractéristiques de la philosophie gnostique dans le discours poétique soufi de l'Emir Abdelkader (M : 1300).

Les mots clés :

Gnose-philosophie- Dialectique-panthéisme- vérité mohammadienne- pôle-désorientation (perplexité) -Evanescence(annihilation-théosophie.

قراءة في مصطلح الغنوص Gnose[1]:

يعد مصطلح الغنوص واحدًا من المصطلحات التي أثارت إشكالات عدة في الدّرس الفلسفي والصّوفي قديماً وحديثًا، فهو مصطلح أخذت تتقاسمه الدّراسات الدّينية والفلسفية، والصّوفية منه بشكل خاص.

إلاّ أنه ذو أصل أجنبي، حيث تبلور في الدينيتين اليهودية والمسيحية، قبل أن يتسرب إلى الفكر الصّوفي الإسلامي.

وعليه، فإننا نرى أن المصطلح قد شاع استعماله في القاموس الأجنبي أكثر مما هو في المعجم العربيّ.

ولكنّ قلة استعماله في القاموس العربيّ إلا أنّنا نعدّها شراكة ثقافية ، تتطلب منا مهاد تأسيسي للمصطلح للوقوف على دلالته ومدى حضورها في الوافد الأجنبيّ وفي التّراث العربيّ.

1- مفهوم الغنّوص في التراث العربيّ:

أ- لغة :

يرجع مدلول الغنوص في المعجم العربيّ إلى الضيق والحرج، وهو مصدر الفعل: غنص يغنص غنوصًا، ورد عن ابن منظور (ت:711هـ) أنه قال :" أبو مالك عمرو بن كركرة: الغنص ضيق الصدر –يقال : غنص صدرُه غنوصًا"[2].

وجاء في القاموس المحيط أنّ الغنوص مشتق من الفعل غنص يغنص غنوصًا؛ أي بمعنى ضيق الصّدر[3]

والمتأمل فيما ورد عن ابن منظور وفيرز آبادي ، أنهما حصرا دلالة الغنص ومشتقاتها في معنى الضّيق.

ب- اصطلاحاً:

ورد في المعجم الفلسفي في تعريف الغنوص بمعنى العرفان أنّه:"العلم بأسرار الحقائق الدّينية وهو أرقى من العلم الذي يحصل العامة المؤمنين وأهل الظاهر من رجال الدّين ، بل هو الغوص على باطن المعرفة وأسرارها"[4].

وكما ورد في كتاب نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام أن الغنوص هو" التّوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، أو الذوق تلك المعارف تذوقا مباشرًا بأنّ تلقي في النفس إلقاء، فلا تستند على الاستدلال أو البرهنة العقلية"[5].

وعرف عبد الرحمن بدوي الغنوص ضمن مصطلح الغنوصيّة، فقال:"... هي من الكلمة اليونانية HVWOIS ؛ أي: معرفة عرفان، ويمكن أن تترجم بـــ"العرفانية"*، نزعة فلسفية دينية صوفية معًا، وسميت بهذا الاسم لأنّ شعارها هو أنّ: بداية الكمال هي معرفة (غنوص) الإنسان، أما معرفة الله فهي الغاية والنهاية"[6].

ومن خلال هذه التّعريفات يتبيّن لنا أنّ معنى الغنوص يبتعد كليةً عن المعنى اللغوي في المعجم العربيّ الذي يحدثنا عنه قبل قليل ، في المقابل يقترب كثيراً بالمعنى الغوي في الوافد الأجنبي.

وخلاصة القول إنّ مفهوم الغنوص يرتكز على المبادئ الأساسية ، ويمكن توضيحها بواسطة الشكل التالي:

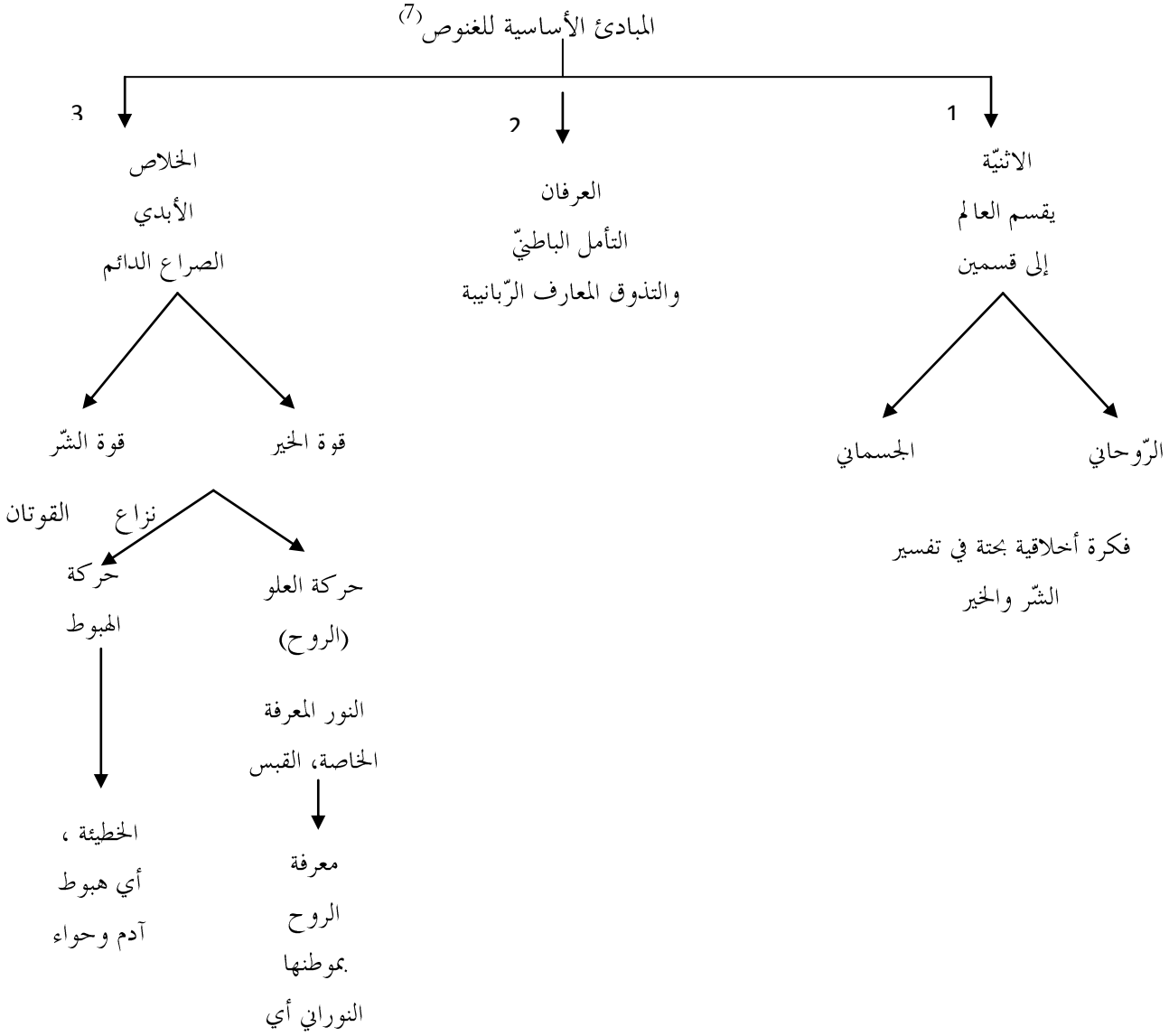

ملامح الفلسفة الغنّوصية في الخطاب الشعري الصّوفي للأمير عبد القادر:

إنّ منهج بلوغ المعرفة عند الأمير عبد القادر من خلال الخطاب الشعري الصّوفي، لا يقوم على الممارسة الحسية والاستدلال العقلي وإنما ينهض على القلب وأسراره والذّوق وإدراكه؛ فهو يأخذ بمنهج الذوق المدعم بالعقل؛ أي العقل بمفهومه الأفلطوني القائم على التصور العاطفي والرمز والإشارة في التّعبير [9]، بحيث لا يمكن للصّوفي أن يدرس مسائل تستغلق على العقل غير المؤيد بالذّوق أن يكشفها، وتصعب على اللّغة غير الرّمزية أن تبيح عن لطائفها.

ولعل هذا ما استوعبه جيدًا"الأمير عبد القادر" ووشج خطابه الشعري بأفكار فلسفة العرفان، ومنها: وحدة الوجود(الوحدة المطلقة)، والحيرة، وحدة الأديان، والحقيقة المحمدية ، فلسفة الجبر والاختيار.

1- وحدة الوجودPanthéisme:[10]

Le panthéisme est un mot créea partir de deux éléments grec pan et théos[11].

et donc le panthéisme « une doctrine philosophique et religieuse selon laquelle dieu est l'unité du mondes »[12].

ويتبيّن لنا من خلال ما جاء في هذين المفهومين أنّ:

وحدة الوجود panthéisme مصطلح يتكون من كلمتين إغريقيتن Pan بمعنى "كل" و"ثيوس « Théos » تعني "اللّبة وهي عقيدة فلسفية ودينية ترتكز على أن موجود إلا الحق(الله).

ومن أشهر من قال بها، محي الدين بن عربيّ(ت:638هـ)، حيث حدد معالمها في كتبة "فصوص الحكم"، ومنه قوله:"... وما تم إلاّ هو؟... وما هو إلا هو؟... وهو من حيث الوجود عين الموجودات. فالمسمى محدثات هي العلية لذاتها وليست إلا هو . فهو العلي لا علو إضافة ... فما في العالم من هذه الحيثية علو إضافة ، لكن الوجود الوجودية متفاضلة. فعلو الإضافة موجود في العين الواحدة من حيث الوجوه الكثيرة لذلك كقول فيه هو لا هو أنت لا أنت...إنّ الله تعالى لا يعرف إلاّ بجمعه بين الأضداد في الحكم عليه لها فهو الأول والآخر والظاهر والباطن. فهو عين ما ظهر، وهو عين ما بطن في حال ظهوره. وما ثم من يراه غيره، وما ثم من بطن عنه؛ فهز ظاهر لنفسه، باطن عنه..."[13].

فنظرية ابن عربيّ الوجودية تقوم على فلسفة الجدل أي "تكرار الكلمات المتناقضة"[14].

وانطلاقا من هذه الفلسفة الجدليّة، أسس الأمير عبد القادر خطابه الشعري، إذ يقول[15]:

أنَا حَقٌّ أَنَا خَلْقُ أَنَا رَبٌّ أَنَا عَبْدٌ

أَنَا كَمٌ أَنَا كَيْفٌ أَنَا وَجْدٌ أَنَا فَقْدٌ

أَنَا قُرْبٌ أَنَا بُعْدٌ

أَلاَّ فَأَعْجَبُوا مِنْ ظَاهِرٍ فِي بُطُونِهِ

وَمِنْ بَاطِنٍ لاَ زَالَ بَادٍ وَظَاهِرا

هُوَ البَاطِنِ هُوَ الظَاهِرَ

أَنَا الحُبُّ وَالمَحْبُوبُ وَالحُبُّ جُمْلَةً

أَنَا العَاشِقُ وَالمَعْشُوقُ سِراً وَإِعْلاَنًا

فَأَنْتَ هُوَ الأَنَا وَهُوَ أنتَ فَاذكرَ

مُنَــزَّهَا أَخَا تَشْبِيهَ بِلاَ جَنَفِ

ونستطيع أن نرى في هذه الأبيات المفاهيم المتقابلة، ومنها:

- الحق في مقابل الخلق. – الباطن في مقابل الظاهر.
- الربّ في مقابل العبد. – الأنا في مقابل الأحب.
- الكم في مقابل الكيف. – السّر في مقابل العلن.
- الوجد في مقابل الفقدان. – التنزيه في مقابل التشبيه
- القرب في مقابل البعد.

إنّ هذه التقابلات التي وظفها الأمير عبد القادر في خطابه الشعري السّابق بصيغتها الثنائية ، هي إقرار بفلسفة وحدة الوجود التي تجمع بين المتضادين في زمن واحد دون أن ينفي الضد ضده وجوديًا"[16]، وهذا ما نراه في مثل قوله:[17]

وَمَا عُرِفَ الخَلاَقُ إلاّ بِجَمْعِهِ
لِضِدَيْنِ مِنْ كُلِ اَلْوُجُوهِ تَضَافَرَا
وَكُلُّ العَوَالِمِ طَوْرًا أَنَا
فَقَدْ جَمَعَ الضِّدُ لِي مَجَمَعُ
تَجَمَعَتِ الأَضْدَادُ فِي أَنَّنِي
أَنَا الوَاحِدُ الكَثِيرُ وَالنَّوْعُ وَالجِنْسُ

إنّ ما ورد في هذه الأبيات من أفكار وآراء في تحديد الوجود « نجد له أشباهها ومثيلات في "فصوص الحكم"...وهي موجهة جميعا من أجل توضيح قضية "إن الوجود كل واحد". ولكن ما دام هذا الوجود ظاهر وباطن فهو يسميه اسمين متقابلين، فمن حيث مظاهره المتعددة المتكثرة المختلفة فهو"الخلق" أي العالم وظواهره، ومن حيث أن هذه الكثيرة والتعدد في العالم ليست إلا "مظاهر" لذات واحدة لحقيقة واحدة فهو "الحق" أي الله...» [18].

إنّ الصورة المتناقضة التي قدمها الأمير عبد القادر عن حقيقة الوجود تنسجم تماما مع مذهب "وحدة الوجود المطلقة" [19] التي تحققت من خلال الأبيات الشعرية الآتية:[20]

هُوَ البَاطِنُ هُوَ الظَاهِرُ

اَلاَ فَأَعْجَبُوا عَنْ ظَاهِرَ فِي بُطُونِهِ
وَمِنْ بَاطِنِ لاَ زَالَ بَادٍ وَظَاهِرا
أَنَا مُطْلِقٌ
أَنَا مُطْلَقُ لاَ تَطْلُبُوا الدَّهْرَ لِي قَيَدَا
وَمَالِي مِنْ حَدٍ فَلاَ تَبْغُوا لِي حَدَا
فَلاَ كَائِنُ غَلاَ أَنَا بِهِ ظَاهِرُ
وَلاَ كَائِنُ يَكُونُ لِي أَبَدَا قَيْدَا
وَلاَ بَاطِنٌ إلاَ أَنَا ذَاكَ بَاطِنُ
وَلاَ ظَاهِرُ غَيْرِي فَلاَ أَقْبَلُ الجُحَدَا

لاشك أن هذه الأبيات ، وعلى الرغم من لغتها الرّمزية ، تلاعبها بالألفاظ، تفصح عن المحاور الأساسية لوحدة الوجود المطلقة لدى الأمير عبد القادر، وهي كالآتي:

أ- إنّ الله هو الظاهر والباطن.

ب- وجود الله المطلق.

2- الحقيقة المحمدية La vérité Mohammadienne[21]

لم يصرح الأمير عبد القادر بلفظ الحقيقة المحمدية صراحة، إلاّ أنّها تبينت من خلال البيت الشعري وشرحه، الذي يتحدث فيه عن الحقيقة القطبيّة، وهي" الحقيقة التي وجدت منذ الأزل، وكان وجودها سابقا على وجود آدم وبقية الأنبياء ، وكانت منبعا فياضًا بالوجود والعلم"[22].

والأمير عبد القادر تحدث عن القطب بلفظ الواحد، وهو" أكمل إنسان متمكن في مقام الفردية، وهو الواحد الذي هو موضع نظر الله في كل زمان، عليه تدور أحوال الخلق"[23]، ولنستلهم من شعره دليلاً على ما نقول، فنجده يذكر لفظ" الواحد" بمعنى القطب* وفي ذلك يقول:[24]

تَجَمَّعَتْ الأَضْدَادُ فِي وَإِنَّنِي
أَنَا الْوَاحِدُ الكَثِيرُ وَالْنَّوْعُ وَالْجِنْسُ

وتحدث عن تعدد مظاهر القطب، والتي تتمثل في صوامع وفي مساجد وكنائس، وفي تعدد أسمائه من محمد صلى الله عليه وسلم إلى موسى عليه السّلام، وقد يتجلى في صورة الأقطاب الصّوفية [25] فيقول:[26]

فَطَوْرًا تَرَانِي لِلْكَنَائِسِ مُسْرِعًا
وَطَوْرًا بِمَدَارِسِ الْيَهُودِ مُدَرِسًا
أَنَا عَيْنُ كَلِّ شَيْءٍ فِي الْحُسْنِ وَالْمَعْنَى
تَعَدَدَتِ الْأَسْمَاءُ وَإِنِّي لَوَاحِدُ
اَلأ فَاعْبُدُونِي مُطْلَقًا نَزْهًا فَرْدًا
وَقَدْ شَرِبَ الحَلاَجُ كَأْسَ مُدَامَةٍ
أَنَا المُوسَوِيُ الأَحْمَدِي وَرَاثَةً

تبدو من هذه الأسطر الشعرية أنّ الحقيقة القطبيّة عند الأمير عبد القادر، لم تتحقق إلا في الأنبياء وأقطاب الصّوفية.

إلاّ أن الأمير عبد القادر استطاع توظيف أسماء أماكن وأشخاص، "ليعبر بها عن الحقيقة المحمدية المشهودة لأهل الحقائق والتّمكين"[27] ومنها: (الكعبة، ومكة، والجنان، والفردوس)، أما الأشخاص (فالموسوي، وليلى)، ويمكننا أن نبيّن رمزية الموسوي وليلى:

1- الموسوي

كليم الله (الطور)

الصعق (الفناء بعد التجلي الرّباني) [28]

2- ليلى المحبوبة المعشوقة ، الذات العلية(المسماة الحقيقة المحمّدية)[29].

وقد ترتبت عن الحقيقة القطبية لدى الأمير عبد القادر، وحدة الأديان .فما تعني؟

3- وحدة الأديان L'unité des religions:

بيّن حسن حنفي وحدة الأديان فقال إنّ: "الأديان أصلها واحد وفروعها كثيرة، وانتساب كل دين إلى فروع منها ليس باختيارهم ومن ثمّ لا لوم على أحد ولا اختيار له كما يظن المعتزلة والقدرية... فاليهوديّة والنّصرانية والإستلام فروع لدين واحد، وهدف واحد...فعبادة الله متعددة"[30]

يقول الأمير عبد القادر [31] في هذا الصدد:

أَنَا اَلْعَبْدُ وَاَلْمَعْبُودُ فِي كُلِّ صُورَةٍ
فَكُنْتُ أَنَا رَبًّا وَكُنْتُ أَنَا عَبْدًا
أَقُولُ بِاسْمِ الِابْنِ وَالأَبِ قَبْلَهُ
وَبِالرُّوحَ رُوحُ اَلْقُدْسِ قَصْدًا وَلاَ كِيْدَا
أُقَرِرُ تُورَاهُ وَأَبْدِي لَهُمْ رُشْدَا
فَمَا عَبْدُ اَلْعَزِيزِ غَيْرِي عَابِدَ
وَلاَ أَظْهَرَ التَّثْلِيثَ غَيْرِي وَلاَ أَبَدَا
وَمَا قَالَ بِالْاثْنَيْنِ إِلاَّ أَنَا لَحْدَا
أَنَا عَيْنُ كُلِّ شَيْءٍ فِي اَلْحُسْنِ وَاَلْمَعْنَى

ومن خلال هذه الأسطر الشعرية يقرر الأمير عبد القادر أنّ الدّين كله واحد والعارف الكامل في نظره هو الذي يدرك أن العبادة الصحيحة، هي أن ينظر العبد إلى جميع الصور على أنها مجال الحقيقة ذاتية واحدة هي الله[32].

4- الحيرة الصّوفية Désorientation perplexité

الحيرة هي حالة يمرّ بها الصّوف السالك لطريق المعرفة ووعيه بالجزئيات الوجودية المتناقضة، هي التي تدفع إلى القلق الفكري والمعرفي فتنكشف الحقائق العرفانية، وهنا تبدأ حيرة الصّوفي[33].

فما الحيرة الصّوفية؟

عرفها عبد المنعم الحفني في كتابه المعجم الصّوفي على أنّها : "بديهة ترد على قلوب العارفين عند تأملهم بحضورهم وتفكرهم تحجبهم عن التأمل والفكرة"[34]، فالحيرة حقيقة مطلقة ولا نهائية ولا تتحقق بالتجربة الحسيّة ولا البرهنة العقلية، وإنّما تدرك بالذوق. وهذا الإدراك الذّوقي هو الحيرة الصّوفية .

يقول الأمير عبد القادر[35]:

يَا حِيرَتِي يَا دَهْشَتِي
يَا حَرْفَ مَالَهُ مَقْر
لَقَدْ حَيَرَتِّنِي حَتَّى
فِي حَيْرَتِي وَفِي أَمْرِي
وَحَارَ كُلُّ ذِي كَشْفٍ
وَذِي عَقْلُ وَذِي فِكْرٍ
يَا حِيرَةُ اَلْعَقْلِ وَيَا ظُلْمَةَ مَا لَهَا نُورٌ

تبدو أنّ الحيرة لدى الأمير عبد القادر هي منهج لمعرفة الحقيقية الإلهية، ودليل على أنّ المعرفة الصّوفية متغيرة متجددة لا تنقطع سيرورتها في الكشف عن اليقين الصّوفي.

فهي السبيل الأنجع عنده لمعرفة الحقيقة ومعايشتها ومتابعتها في تجلياتها وتطورها المستمر:[36]

أَيَّا حِيرَتِي وَمَا اَلْذِي أَصْنَعُ
قَدَ ضَقَتْ ذِرْعًا فَمَا يَنْفَعُ
وَأَهْرُبُ مِنْ حِيرَتِي كُلَّمَا
تَوَالَتْ فَكَانَ لَهَا اَلْمَرْجَعُ
فَحِيرَتِي مَا كُنْتُ كَائِنَةً
وَحَتَّى اَلْقِيَامَةَ لاَ تُقْلَعُ
فَأَشْكُو إِلَى حِيرَةِ حِيرَتِي
فَلَيْسَ إِلَى غَيْرِهَا مَفْزَعُ
وَكَمْ كَائِنٌ بِهَذَا اِبْتَلَى
وَكُلٌّ لَقَدْ ضَمَ ذَا اَلْمَصْرَعُ
فَيَا خَيْبَةَ اَلْعَقْلِ فِي حُكْمِهِ
عَلَى اَلْعَيْنِ سَتَرَى فِي يَقْشَعُ
فَمَا بَيْنَ هَذَا وَذَا تُوهَ
عُقُولُ اَلْوَرَى اِغْتَالَهَا سَبْعُ
وَتَاهَتْ فِي بَيْدَاءٍ مُظْلِمَةٍ
مَجَاهِلُ أَرْوَاحُهَا زُعْزَعُ
سُكَارَى وَشَتَى مَفَاهِيمُ
وَكُلٌّ يَقُولُ إِلَيَ إِهْرَعُوا
فَعِنْدِي اَلْنَجَاةُ وَعِنْدِي اَلْهُدَى
وَعِنْدِي اَلْسَّبِيلُ وَذَا اَلْمُهَيَعُ

تصويره الدرامي الذي شكله عبر التاريخ عبر التركيز على الروحي في الكشف عن عمق حيرته[37].

5- التجلّي:

التجلي (لغة) وردت لفظة التّجلي من جَلا لأمر وجلاً وجلّى عنه كشفه وأظهره، وق تجلّى يتجلّى، وأمر جلليّ واضح وأجلّ لي هذا الأمر؛ أي أوضحه ، والجلاء الأمر البيِّنُ الواضح[38] وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾[39]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾[40].

أما التجلّي اصطلاحا هو: "إشراق أنوا إقبال الحق على القلوب المقبلين عليه"[41]، وهو على ثلاثة أحوال[42]:

أ- تجلّي الذات : وهو المكاشفة ؛ أي كشوف القلب في الدّنيا.

ب- تجلي صفات الذات: وهو موضع النور، فيتجلى له قدرته عليه فلا تخاف غيره.

ج- تجلي حكم الذّات : وهو علاقة تجلّي الحق للأسرار، ولعل هذه المعاني للتجلّي تظهر في شعر الأمير عبد القادر ، حيث يقول:[43]

ولعل هذه المعاني للتّجلي تظهر في شعر الأمير عبد القادر، حيث يقول:[44]

يا عَظِيمًا تجلَّ قَدْ تَجلَّى

كُلُّ مُجْلٍ لَهُ مُجْلَى

أَنْتَ عَبْدِ كُلُّ بادٍ أَنْتَ أَبْدَى أَنْتَ أجْلَى

كُلُّ مَنْ فِي الكَوْنِ أَنْتُمْ أَنْتَ مَوْلَى كُلُّ مَنْ مَوْلَى

حَسَنَكَ البَارِي تَعَالى أَنْ تَرَى عِنْدَهُ مَثَلاَ

كُلُّ حُسْنٌ مُسْتَعَارٌ مِنْ جَمَالٍ قَدْ تَدَلى

أيْ حسنُ أيْ حسنٌ غَيْرَ حُسْنٍ قَدْ تَعَالى

ولاشك أن هذه الأبيات ، وعلى الرّغم من لغتها الرمزية وتعبيراتها التعتيمية وتلاعبها بالألفاظ تفصح عن أفكار أساسية هي:[45]

أ- الله كوجود مطلق

ب- والعالم كوجود مخلوق بالتجلّي.

6- الفناء:

جاءت لفظة(الفناء) من فَنَى يفنى؛ أي بمعنى زال وهلك وانتهى ومات وهرم [46] ومنه قوله تعالى:﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ۝٢٧ ﴾[47].

أما الفناء اصطلاحًا فعرفه الكلابادي(ت:380هـ):"هو أن يفني عنه الحظوظ ، فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، ويسقط عنه التّمييز ، فناء عن الأشياء كلّها شغلا بما فنى به"[48]، ويؤدي هذا المفهوم للفناء معنى أخلاقي سيكولوجي[49].

ولعل هذا المعنى يمثل دلالة الصعق أو الفناء النّفسي[50]، لقوله تعالى:﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣ ﴾[51]،وهذا المعنى أشار إليه الأمير عبد القادر بقوله[52]:

أرَى الّذي أَفْنَاني سيَخْلِفني بعد يَقُوم بوَسْمِنا فيشمله الحدُ

لِذاكَ أرَى اسمَهُ يُعيْنُ رَسْمَنا يَجيبُ إذَا دعَى لا ردُ ولا جَحَدً

فمَا بالهَمَمْ يَدْعُونه عبْدُ قادرُ و لمْ يَبْقَ إلاَّ قادرُ مالهُ عَبْدُ

لَقَدْ بادَ مَنْ كان مِنْ قَبْلُ بَائِدَا وزَالَ خَيَالُ الظلُ وارْتَفعَ الّسدُ

يَا صاحَ أَنَّكَ لَوْ حَضْرْتَ سَمَاءَنَا وَقْتَ انْشِقَاقِها حين لا تَتماسَكُ

والأبيات تدل على أن الفناء هو:" أن لا يرَى شيئًا إلا الله، ولا تعلم إلاّ الله، وتكون ناسيًا لنفسك ولكلّ الأشياء سوى الله"[53]

ويبدو أنّ الأمير عبد القادر تأثر بفلسفة ابن عربيّ(ت:638هـ)"فالخلق في مذهبه ليس إيجادًا من العدم بل هو ظهور وتجلّ إلهي قيما لا تجلي إلهي فيما لا يحصى عدده من صور الموجودات ، فالحق الخلق المخلوقات بلغة ابن عربي : يتجلى في صورتها"[54].

ويقول الأمير عبد القادر [55] في شعره الصّوفي مشيرا إلى هذا المعنى للفناء:

شهِدْتُ صَعْقَتَنا وإلاَ لهُ قائلٌ

المَلَكُ في اليومِ مالِ مُشاركُ

والشاعر يسعى في هذا البيت إلى توضيح معنى الفناء من خلال لفظة" صعقتنا" ، وهي:" الفناء عند التجلي الربّاني"[56] أي الفناء في الحق [57]بمعنى التجلّي من قبل الحق وكشفه عن العبد حاله[58]، أما الفناء عند الأمير عبد القادر فهو فناء للخصال المذمومة وبقاء ما هو محمود، وفي ذلك يقول:[59]

وفِي الحَالِ حالُ الشُّكْرِ والمَحْو والفَنا

وصَلْتُ إلى لا أيْنَ حَقَا ولا ورَ

أما المُوسويُّ الأحمدِي ورَاثنةً

صَقَتْ ودك طَوْرَنَا جَرَى ما جَرَى

ومن هنا، فالفناء عنده هو غياب الذات (الشكل) وحضور المطلق (الجوهر)، والملاحظ أنّ المحو والسّكر يصبحان مؤشرين للفناء لديه، فالمحو هو:"رفع أوصاف العادة بحيث يغيب العبد عندها عن عقله"[60]، أما السّكر فهو:" ذهول وانصراف عن النّفس أو دهش يلحق سر المحبّ في مشاهدة جمال المحبوب"[61]، وبهذا يكون الأمير عبد القادر ألبس مصطلح الفناء دلالتي، هما:

أ- دلالة الهروب ونسيان الواقع (عالم الخطيئة).

ب- دلالة استرجاع الماض –(عالم الرّوحانيات والملائكة).

وخلاصة القول فإنّ الفناء لدى الأمير عبد القادر هو إفناء لأهواء النفس، وتطهيرها من الأدران، بغية الوصول إلى أسمى المقامات والمنازل.

نتائج وملاحظات :

يعد أنّ انتهينا من هذا المقال الذي عنوناه بـــ الخطاب الشّعري الصّوفي الغنّوصي للأمير عبد القادر (1300هـــ) قراءة في المصطلحات ، تبين لنا أنّ خطابه هو:

1- وعاء للاثنينيات المعرفيّة المتقابلة في مظاهر عديدة لها؛ ليس إلا تنوعاً في إطار وحدة الوجود المطلقة.

2- استعمال لغوي ذي نسق ذوقي عرفاني، يتعالى على نمط اللّغة العادية.

3- نسق من العلامات الرّوحيّة ذات البعد الفلسفي.

4- سجل حافل بالأفكار والنّظريات الفلسفية التّي سادت القرن السابع الهجري (وحدة الوجود المطلقة، والحب المطلق، ووحدة الأديان، والحيرة الصّوفية، والجبر والخيار، والحقيقة المحمدية).

5- نسيج من الاصطلاحات الصوفية ذات البعد الغنوصي.

الهوامش:

* هو ناصر الدين الأمير عبد القادر محي الدّين بن مصطفى بن محمد بن المختار بن عبد القادر خدة بن أحمد بن محمد بن عبد القوي أحمد بن بشار بن أحمد بن محمد بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن عبد القوي بن أحمد بن محمد ابن باديس بن عبد الله الكامل بن لحسن المثنى بن الحسن السبط وعشرين للهجرة ببلدة القيظة.

وتوفي رحمه الله بقرية دمر بدمشق من شهر رجب سنة ألف وثلاثمائة للهجرة، ودفن بجوار الشّيخ الأكبر محي الدّين ابن العربيّ الحاتمي.

استطاع الأمير عبد القادر أن يجمع بين السّيف والقلم ، وعليه خالد اسمه بتأليفه لمصنفات ذات قيمة، نذكر منها ما يلي:

1-المقراض الحاد لقطع لسان الطّاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد.

2-ذكرى العاقل وتنبيه الغافل.

3-تعليق على حاشية لأحد أجداده في علم الكلام.

4-المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد.

5-مذكراته.

6-ديوان شعري فيه مختلف الأغراض لاسيما الفخر والتّصوف والغزل، حققه ممدوح حقي، وزكريا صيام، والعربي دحّو.

ينظر: ديوان الأمير عبد القادر ، ترجمة الأمير عبد القادر، منشورات ثالة، ط03، 2007، تح:العربي دحو، ص:25-40.

(1) Voir: Mekaoui Abdalilah, glossaire, arabe-français de termes soufis, maroc, centre darras ibn Ismail, 2011, 1 ère édition , P :56.

(2) ابن منظور، لسان العرب، بيروت-لبنان، دار صادر، 1994، ط:03، مج: 07، (مادة غنص)، ص:62.

(3) الفيروز آبادي، القاموس المحيط، بيروت، دار الكتب العلمية، ط:02، مادة غنص، ص:647.

(4) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت-لبنان، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، 1982، ج:02، ص:72.

(5) علي سامي النشار، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، ج:01، ، ص:189.

*العرفانية Le gnosticime، ينظر فؤاد كامل، قاموس المصطلحات الصوفية عربي –فرنسي- انجليزي، بيروت، دار الجيل، 1993، ط:01، ص:99.

(6) عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1984، ط:02، ج:02، ص:86.

(7) ينظر: المرجع المذكور سابقا، علي سامي النشار، ص:191، 194، 212.

(8) ينظر: وفيق سليطين، الشعر الصّوفي بين مفهومي الانفصال والتّوحد، سورية-دمشق، دار الرأي للنشر، 2007، ص:91،92.

(9) ينظر: أحمد العدلوني الإدريسي، التّصوف الأندلسي أسسه النظرية وأهم مدارسه، الدار البيضاء-المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، 2005، ط:01، ص:150.

(10) ينظر: فؤاد كامل، قاموس المصطلحات الصّوفية عربي –فرنسي- انجليزي، ص:148.

(11) Voir :Alain Rey, Le robert, Tome 02, P :1529.

(12) Op.cit., le robert, Tome 02, P :1529.

(13) محي الدّين بن عربي (ت:638هـ)، فصوص الحكم ، الجزائر، موفم للنشر، 2007، ص:4140، (فص حكمة قدوسيّة في كلمة إدريسية).

(14) زكي سالم، الاتجاه النقدي عند ابن عربي، القاهرة، مكتبة الثقافة الدّينية، 2005، ط:01، ص:188.

(15) ديوان الأمير عبد القادر ، تح: العربي دحو، الجزائر، منشورات ثالة، 2007، ط:03، ص:117، 118، 126.

(16) حسن السمان، التماثل والخطاب الصّوفي نظرية كونية البنية وشمولية الوعي، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع، 2011، ط:01، ص:395.

(17) ديوان الأمير عبد القادر، ص:121، 125، 126.

(18) محمد العدلوني الإدريسي، التصوف الأندلسي أسسه النظرية وأهم مدارسه، ص:152.

(19) ينظر: محمد العدلوني الإدريسي، تأملات في الفكر الصّوفي الأندلسي، دار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2012، ط:01، ص:69.

(20) ديوان الأمير عبد القادر، ص:118، 119، 120.

(21) ينظر: محمد العدلوني الإدريسي، معجم مصطلحات التّصوف الفلسفي، الدار البيضاء-المغرب، دار الثقافة ، 2002، ط:01، ص:86.

(22) عبد الخالق محمود عبد الخالق، تائية ابن الفارض وشروحها في العربية دراسة وتحقيق، القاهرة، عين الدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية، 2009، ط:01، ص:333.

(23) المرجع السابق، عبد الخالق محمود عبد الخالق، ص: 333.

*القطب هو إنسان اختص بما لم يختص به غيره عن الكمال. ويسمى الغوث. ينظر ممدوح الزوبي، معجم الصّوفية ، بيروت، دار الجيل، 2004، ط:01، ص:334.

(24) ديوان الأمير عبد القادر، ص:125.

(25) ينظر: حسن حنفي، من الفناء إلى البقاء محاولة لإعادة بناء علوم التّصوف، بيروت- لبنان، دار المدار الإسلامي، 2009، ط:01، ج:02(الواعي الذّاتي)، ص:568.

(26) ديوان الأمير عبد القادر، ص:120، 122.

(27) أحمد درويش، المصطلح الصّوفي في شعر الأمر عبد القادر، جامعة وهران، مخطوط، رسالة ماجستير، 2004-2005، ص:101.

(28) ينظر: سعيد هارون عاشور، شرح معجم اصطلاحات الصّوفية لمحي الدّين بن عربي، القاهرة، مكتبة الآداب، 2002، ط:01، ص:58.

(29) ينظر: أحمد درويش، المرجع نفسه، ص:75.

(30) حسن حنفي، من الفناء إلى البقاء محاولة لإعادة بناء علوم التصوف، ج:02، ص:623.

(31) ديوان الأمير عبد القادر، ص:120، 122.

(32) ينظر: محمد العدلوني الإدريسي، التصوف الأندلسي أسسه النظرية وأهم مدارسه، ص:163.

(33) ينظر: محمد العدلوني الإدريسي، تأملات الفكر الصوفي الأندلسي، ص:205.

(34) عبد المنعم الحفني، المعجم الصّوفي الكتاب الشامل لألفاظ الصوفية ولغتهم الاصطلاحية ومفاهيم ومعاني ذلك ودلالته، القاهرة، 1997، ط:01، ص:84.

(35) ديوان الأمير عبد القادر، ص:123، 124.

(36) المصدر نفسه، ص:126، 127.

(37) ينظر: محمد المسعودي، اشتعال الذات سمات التصوير الصّوفي في كتاب الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي ، بيروت- لبنان، الانتشار العربي، 2007، ط:01، ص:191.

(38) ينظر : لسان العرب، ابن منظور، (مادة جلا).

(39) سورة الأعراف، الآية: 134.

(40) سورة اللّيل، الآية:02.

(41) شرح معجم اصطلاحات الصّوفية لابن عربي، تح: سعيد هارون عاشور، ص:40-41.

(42) ينظر: معجم اصطلاحات الصّوفية، ممدوح الّزوبي، ص:774.

(43) ديوان الأمير عبد القادر الجزائر، تح: العربي دحّو، ص:129.

(44) ينظر: التصوف الأندلسي أسسه النظرية وأهم مدارسه، محمد العدلوني الإدريسي، ص:157.

(45) التعرّف لمذهب أهل التصوّف، أبو بكر الكلاباذي(ت:380هـ) ، تح: محمود أمين النواوي، المكتبة الأزهرية للتراث، ط.03، 1992، ص:145.

(46) ينظر: معجم مصطلحات التصوّف الفلسفي، محمد العدلوني الإدريسي، ص:166.

(47) ينظر: المرجع نفسه، محمد العدولني الإدريسي، الصفحة نفسها.

(48) ينظر: شرح معجم اصطلاحات الصّوفية، ص:51.

(49) ينظر : التصوف الأندلسي، محمد الإدريسي العدلوني، ص: .

(50) شرح معجم الاصطلاحات الصوفية لابن عربي، تح: سعيد هارون عاشور، ص40.

(51) سورة الأعراف، الآية: 143.

(52) ديوان الأمير عبد القادر، تح: العربي دحّو، ص:121-122.

(53) المعجم الصّوفي، عبد المنعم الحفني، ص: 196.

(54) المعجم الصّوفي، سعاد الحكيم، ص:889.

(55) ديوان الأمير عبد القادر، تح: العربي دحّو، ص:1296.

(56) شرح معجم اصطلاحات الصّوفية لمحي الدّين بن عربي، تح: سعيد هارون عاشور، ص:58.

(57) المرجع نفسه، ص:58.

(58) ينظر: الكواكب العرفانية في شرح ألفاظ القدسية، تح: محمد بن عبد الكريم الجزائري، ص:256.

(59) ديوان الأمير عبد القادر، ص :122.

(60) معجم الصّوفية، ممدوح الزّوبي، ص:372.

(61) المرجع نفسه، ممدوح الزّوبي، ص:211.